

ماذا تعرف عن الفترة الأسوأ في تاريخ الأندلس؟



مما يُرْهَدُنِي فِي أَرْضِ أُنْدَلُسٍ *** أَسْمَاءُ مُعْتَمَدَةٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدِ
أَلْقَابِ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا *** كَالهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الأَسَدِ

كان هذا ببساطة اختصارًا ميسرًا بلاغة رائعة من الشاعر عندما أراد أن يصف حال الأندلس في حقبة "ملوك الطوائف" التي يندي لها الجبين من المؤرخين الإسلاميين عند ذكرها أو الخوض في غمارها، أسماء لها رنين في الأذن، لأول وهلة تظنها أسماء فرسان لا يعرفون غير الخيل المسومة والسيوف الماضية والرماح الخاطفة على أعدائهم، ملوك يبذلون الغالي والنفيس لخدمة شعوبهم والعمل على راحتهم والدفاع عنهم، ولكن في الحقيقة هم كالهر يعوضون خيبتهم وعجزهم وانعدام رؤيتهم وإرادتهم بأسماء مفخمة تعظيمًا لهم وإكبارًا.

بدأت هذه الحقبة في بداية العقد الثاني من القرن الرابع الهجري بعد تفكك الخلافة الأموية في الأندلس وذهاب ملكهم إلى بني عامر ومن ثم بعد ذلك تفككت الأندلس إلى 22 دويلة على رأس كل واحدة أمير يسمي نفسه "أمير المؤمنين" للتعظيم من شأنه ورفع قدره بين أبناء دويلته، حتى إن الرجل من عامة الناس كان يسافر في الأندلس فيلتي في اليوم والليلة بثلاثة أمراء للمؤمنين.

كانت هذه الدويلات تتناحر فيما بينها على الحدود الجغرافية لترسيخ هبة كل مقاطعة منها، ومع ذلك كانت أغلب هذه الدويلات تدفع - فيما كانت تسمى حينها - "الجزية" للملك ألفونسو السادس عن طيب خاطر كي ينصر بعضهم على بعض ويمد أحدهم بالقوة حتى يقضي على الآخر، وفي هذه الانتكاسة الكبرى سقطت "طليطلة" بأيدي النصارى، والتي كانت قبل عشرات السنين يستقبل فيها عبد الرحمن الناصر "الجزية" من ملوك النصارى ويخرج منها لملاقاتهم في معاركه.

كان حال ملوك الطوائف أشبه بحال المسلمين الآن، دول متفرقة متشرذمة بعد سقوط الخلافة

العثمانية (1922م) تتناحر فيما بينها، على رأس كل دولة رئيس أو ملك أو أمير تجد له من التقدير والتفخيم والتعظيم ما لم يستحقه قائد معركة تحرير، أو زعيم سياسي أزاح الاحتلال عن بلده وموطنه. كان ديبب الوهن الذي يدب في جسد الأندلس هو ذاته الذي يدب في الأمة الإسلامية الآن، وهم - ملوك الطوائف حاليًا - وإن كانوا لا يدفعون الجزية بشكل معلن وصریح للقوى الغربية كما في عهد ملوك الطوائف إلا أنها تجبي منهم بطرق ملتوية تواكب العصر الحديث يتدخل الاقتصاد وسوق المال في استئثارها عن الشعوب.

لم يكتف رؤساء وأمراء الدول العربية والإسلامية بالافتقار من أثر زعماء ملوك الطوائف من ناحية جباية الأموال منهم والتناحر والتضاد فيما بينهم فقط، فوجد دول عربية حذت حذوهم بشكل شبه كامل وفعلت ما كان يُفعل تمامًا في هذه الحقبة السوداء من تاريخ الأندلس، فمن زعماء الدول العربية من استنجد بالقوى الغربية لحفظ ملكه وسلطانه خوفًا من نوايا إحدى الدول العربية، فلما انقضت المهمة ظلت القوى الغربية تقيم قواعدها كأنها لم تأت لمهمة محددة معلومة، تمامًا كما حدث في طليطلة ومكوث ألفونسو السادس فيها بعدته وعتاده.

كان عصر ملوك الطوائف إسقاطًا حقيقيًا لواقعنا اليوم، ورغم أن أغلب الناس مقتنعين بمبدأ أن التاريخ يعيد نفسه باستمرار، وأن سنن الله في هذه الحياة ثابتة لا تغيير فيها ولا تبديل، إلا أننا نجد أن من يمتلك زمام سلطة معينة لا يرى إلا كرسي سلطته والحفاظ عليه حتى وإن استنجد بقوى غربية هي في الأساس معادية للمشروع الذي ينتمي له دينيًا، ولكن الحفاظ على المُلْك دائمًا ما يكون أوجب الواجبات في هذه الحالات.

كانت نهاية حقبة ملوك الطوائف على يد دولة المرابطين بعد انتصارهم في موقعة "الزلاقة" على يد ألفونسو السادس ورجوعهم إلى المغرب حتى يتموا ما بدأه من دعوة الناس إلى صحيح الإسلام وسليم العقيدة، ولكن العلماء استنجدوهم ثانية بعد وقوع ملوك الطوائف في الخطأ القديم نفسه من التناحر فيما بينهم، فوافق أمير المرابطين يوسف بن تاشفين ودخل الأندلس للمرة الثانية مجتمعا الأندلس كلها تحت راية واحدة ودولة واحدة تذهب بالخلافات والتناحر بين أمراء الأندلس أدراج الرياح.

كانت حقبة "ملوك الطوائف" نقطة سوداء في ثوب الأندلس الأبيض، كما أن المائة سنة الأخير للمسلمين هي من أخط العصور للأمة الإسلامية، ففقدان الخلافة التي كانت تجمع شتاتهم، وعداء الدول مع بعضها البعض، واستئثارها بما في أيديها من موارد، وظلم الشعوب بدكتاتورية لم يأمر بها الدين ولم تحض عليها أية دساتير وقوانين، وذهاب عهد الحريات والإبداع في المجالات المختلفة التي تقيم الحضارات، ووئدها في المهدي بدعوى الأمن القومي وسيادة الدولة؛ كل هذا كان باعثًا على الانحطاط وفقدان النهوض وبالتالي المكوث في مربع التأخر والجهل والفساد.

فهل يكمل التاريخ ما بدأه، ويتطابق الماضي مع الحاضر، وينبعث من بين هذه المحنة مرابطين جدد، يجمعون شتات هذه الدول المبعثرة ويعيدوا لها حضارتها ورونقها ويستلون سيف التقدم من غمد التأخر والتذليل، ويعكفون على إعادة الثقة في نفوس الشعوب المسلمة بعد فقدان لها دام سنين - وربما قرون - بسبب تمالك الظنون في النفوس بانعدام إعادة البعث واستحالاته.

ربما هذه المحن التي تمر بها الأمة الإسلامية هي بمثابة التدريب العملي والإعداد للطليعة التي ستقود الأمة فيما بعد، تدريب لإخراج كوادرات تكون أكثر وعيًا ومعرفة بعد خروجها من آتون المحن التي مرت بها في الآونة الأخيرة، واحتكاكها بتجارب وأحداث تمكنها من فهم طبيعة المعركة والانتصار فيها ثم الإدارة الجيدة ما بعد التمكين.

ماذا تعرف عن الفترة الأسوأ في تاريخ الأندلس؟

أحمد رزق | نشر في ٢٨ مارس, ٢٠١٦



رابط المقال: <https://www.noonpost.com/10958/>